الفصل الأول

تعريف الحضارة لغةً واصطلاحاً

تعريف الحضارة :

الحضارة في اللغة العربية من الفعل (حضر) على وزن فعل يقال حضر الغائب حضوراً قدم من غيبته وحضرت الصلاة فهي حاضرة، والأصل حضر وقت الصلاة والحَضَر بفتحتين خلاف البدو والنسبة إليه (حضري) أقام بالحضر (والحضارة) بفتح وكسرها، سكون الحضر والحَضَر والحَضْرة والحضارة البادية وهي المدن والقرى والريف وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[1].

واستعملها الشاعر القطامى مفتخراً لبداوة قومه ومستخفاً بساكنى القرى والمدن :

فمن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا

قال ابن خلدون: الحضارة أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفة وتتفاوت الأمم مع القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر[2] ثم بين ابن خلدون [3] أن الحضارة لا تظهر إلا في المدن والقرى وأنها غاية العمران وأنها تتصل بالتفنن في الترف واستجارة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه.

هناك مصطلحات لها علاقة بالحضارة نذكر منها:

الوبر والمدر:

وهذا يعني الصوف والطين، والصوف رمزاً للبداوة، والمدر الطين نبني منه المنازل. وإذا قيل أهل المدر كان معناه أهل الحواضر والقرى والمدن ومثل كلمة الوبر والمدر كلمة (الحدر والحجر).

---

(١) المصباح المنير ولسان العرب مادة(حضر).
(٢) المقدمة ابن خلدون، ص١٦٨ المطبعة التجارية، القاهرة.
(٣) المرجع نفسه ص١٦٨.

الحدر تشير إلى أهل البادية حيث لا بناء على الأرض والحجر يشير إلى المدن حيث البناء والساكن [1] .

ويمكن تحليل معنى الحضارة:

الحضارة تعني في أصل اللغة الإقامة إذا كانت إقامة مجموعة من الناس في الحضر، أي مواطن العمران سواء كانت مدناً أو حضراً أو قرى فإن معناها قد توسع عند المؤرخين والباحثين الاجتماعيين حتى صار شاملاً لجميع أنواع التقدم والرقي الإنسانيين لأنهما لايزدهران إلا عند المستقرين في مواطن العمران وبإحصاء صور التقدم والرقي عند الإنسان نستطيع تحليلها إلى الأصناف الثلاثة الآتية:

الصنف الأول: ما يخدم الجسد ويمتعه من وسائل العيش وأسباب الرفاهية والنعيم ومعطيات اللذة للحس أو النفس، ويدخل في هذا الصنف أنواع الترقي والتقدم العمراني والزراعي والصناعي والصحي والأدبي والفني والتقدم في الإنتاج الحيواني واستخراج كنوز الأرض والاستفادة من الطاقات المنبعثة فيها وما شابه ذلك.

الصنف الثاني: ما يخدم المجتمع الإنساني ويكون من الوسائل التي تمنحه سعادة التعاون والإخاء والأمن والطمأنينة والرخاء، وتمنحه سيادة النظام والعدل والحق وانتشار أنواع الخير والفضائل الجماعية، ويدخل في هذا الصنف أنواع التقدم الاجتماعي الشامل للنظم الإدارية والحقوقية والمالية والأموال الشخصية، والشامل للأخلاق والتقاليد والعادات الفاضلة وسائر طرق معاملة الناس بعضهم البعض في علاقاتهم المختلفة.

الصنف الثالث: ما يأخذ بيد الإنسان فرداً كان أو جماعة إلى السعادة الخالدة تبدأ من فترة إدراك الإنسان ذاته والكون من حوله، وتستمر مع روحه إلى ما لا نهاية في الوجود الأبدي الذي ينتقل من حياة جسدية مادية

---

(١) انظر بتوسع، توفيق محمد يوسف الواعي،الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ط٢، الكويت، مكتبة المنارة الإسلامية، ٢٠٠٤م، ص٢٣.

يكون فيها الابتلاء إلى روحية برزخية ثم إلى معاد يكون فيه كامل الجزاء[1].

وللحضارة والثقافة والمدنية معاني عند الأوربيين أوردها الأستاذ الدكتور توفيق الواعي في كتابة (الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية).

في أصل كلمة حضارة وإذا انتقلنا من العربية إلى اللغات الغربية لنرى أصل الكلمة عندهم ومأخذها ومدلولها وجدنا ثمة لفظتين رئيسيين تستعملان للدلالة على معنى الحضارة civilization و culture ولكل منها تاريخ طويل متشعب وألوان مختلفة من الدلالة، ونلاحظ أن أصل كلمة culture مأخوذة من اللاتينية culture من فعل colere بمعنى حرث أو نمى، وقد كانت هذه الكلمة في العصور القديمة والوسطى تطلق على تنمية الأرض ومحصولاتها، ومع أن شيشارون استعملها بالمعنى المجازي ومراعياً الفلسفة culture mertis أي فلاحة العقل (تنميته) فإن هذا المعنى ظل نادراً في اللغة اللاتينية وفي أوائل العصور الحديثة بدأت تستعمل في الإنجليزية والفرنسية بمدلولها المادي والعقلي مع إضافة الشيء المقصود تنميته la culture du ble – la culure des arts ومثلها في الإنجليزية، فلما كان القرن الثامن عشر أخذ الكتاب الفرنسيون كفولتير وأقرانه يطلقون هذه اللفظة إجمالاً وبدون أداة تعريف أو إضافة إلى شئ معين وغدت culture بهذا المعنى المطلق يقصد بها تنمية العقل والذوق ثم انتقلت إلى حصيلة هذه العملية أي المكاسب العقلية والأدبية والذوقية التي نعبر عنها بالعربية بلفظ الثقافة، أما في الإنجليزية فإن أول نص نستعمل فيه هذه الكلمة بما يشبه هذا المعنى يعود حسب معجم أكسفورد إلى عام ١٨٠٥م، ولا يزال هذا المعنى هو أحد معانيها والسائدة في اللغة الغربية، وقد انتقلت هذه اللفظة إلى الألمانية من الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر بشكل culture ثم kulture وانتقل معها معناها الأخير (أي الإنماء العقلي والأدبي وحصيلة هذا الإنماء) ثم أخذ معناها يتطور عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع والمؤرخين ويتجلى عن دلالات

(١) عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني، بدون بلد بدون دار نشر، ١٣-١٩، ص١١-١٢.

الإنماء أو التحسين الفردي، ويتحول إلى الأكوان بمجموعها وبرز هذا المعنى الأخير في أواساط القرن التاسع عشر عند المؤرخ والعالم الألماني (جستان كلمن) الذي يعتبر علم الأنثروبولوجيا هو العلم الذي تهتم دراسته بالأجناس البشرية سواء الموجود منها الآن أو التي اختفت مع العناية بالدراسة التحليلية المقارنة للشعوب البدائية كذلك.

والخلاصة: هو علم الإنسان الذي يدرس نواحي النوع الإنساني وكل الظواهر من حيث تعلقها بالإنسان وتنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- الطبيعية وتدرس تطور الإنسان والحفريات .

٢- الاجتماعية وتدرس النظم الاجتماعية المختلفة.

٣- الثقافية وتدرس ثقافة الإنسان وغدت هذه اللفظة تطلق على مجموعة عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات، وهذا هو أصل المعنى الاصطلاحى الذى تحويه كلمة culture اليوم عند علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، وانتقل هذا المعنى من kelemrn إلى العالم الأنثروبولوجي الإنجليزي E.B.2 Tylar الذي كان أول من استعمله باللغة الإنجليزية عام ١٨٧١م ومنه تسرب للأوساط العلمية الأنجلوسكسونية ثم انتشرت بصفة خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وغدا هذا المعنى الاصطلاحي مفهوماً أساسياً في هوية العلمين في ألمانيا وأمريكا ولكنه لم يصادف مثل هذا الرواج في انجلترا وفرنسا، ومهما يكن من أمر فإنه يرتكز بعد ارتكازه الأخير ولم ينف عن كلمة culture معانيها السابقة [١] .

أما الثقافة فقد أورد المرجع نفسه استخدم الغربيون في التعبير عن كلمة ثقافة لفظة culture المستعمل في الحضارة، ولاتزال تستعمل هذه الكلمة في الفرنسية والإنجليزية ولغات أخرى بمعنى الثقافة والثقافة بوجه عام بل عاد إليها في العلوم الطبية والتطبيقات الصناعية معناها الأصلى أي عملية إنما الأشياء المادية كالجراثيم واللاتي بالزرع والتصنيع ومنهم من يذهب إلى أن كلمة الحضارة ينبغي أن تكون ترجمة لكلمة civilization، والثقافة

(١) المرجع نفسه، ص٢٥-٢٧.

culture كما استعمل الأوربيون كلمة civilisation أو civilization الإنجليزية في المدينة، وقد اشتقتا من sivis أي المدينة أو المواطن في المدينة ثم أخذت تستعمل مجازاً.

وقد عنيت في بادى الأمر شأن مرادفتها culure لا بصيغة المصدر للدلالة على ذاتها لا على النتيجة الحاصلة منها ثم تطورت لتعبر عن هذه النتيجة أي عن حالة الرقي والتقدم في الأفراد والمجتمعات، وكان استعمالها بهذا المعنى أقدم في الفرنسية منه في الإنجليزية، ومالبثت هذه الكلمة أن انتشرت في اللغات الأوربية إلى اليوم حيث تستعمل بمعنى الحضارة أو الكيان الحضاري.

وقد حاول وول ديورانت أن يربط بين أصل كلمة المدنية civilization وعلاقتها بالتهذيب ودقة المعاملة civility وعنده أن ذلك ضرب من السلوك المهذب الذي هو رأي أهل المدن وهم الذين صاغوا حكمة المدنية وذلك أنه يجتمع في المدنية وما ينتجه الريف من ثراء ونوابغ العقول، وكذلك يعمل الاختراع وتعمل الصناعة في المدينة على مضاعفة وسائل الراحة والترف والفراغ، ويتلاقى فيها التجار والصناع يتبادلون السلع والأفكار فتتلاقح العقول، وبرهان الزكاء وتستثار فيه قوته على الخلق والإبداع [1].

السؤال: هل الحضارة عربية أم إسلامية ؟

ناقش هذه القضية د. عبد الحميد حسين أحمد السامرائي: كثيراً ما تجري محاورات فكرية حول تسمية الحضارة ويقف الدارسون امام تسميتين: الحضارة العربية والحضارة الإسلامية، وتبعاً لذلك أصبح حتماً على كل مؤلف في هذا المجال أن يختار التسمية التي يراها.

يميل كثير من الباحثين إلى التسمية الحضارة العربية على أساس دور العرب واللغة العربية لغة القرآن الكريم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [2].

---

(١) فلسفة الحضارة الإسلامية، د. عفت الشرقاوى، دار النهضة، ص١٧.

(٢) سورة يوسف، الاية ٢.

وكذلك ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (١١٣) [١].

كما فعل جوستاف لوبون الذي سمي كتابه (حضارة العرب) كما فعلت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه التي سمت كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربية في أوروبا)، وكذلك فعل جاك ويسلر سمى كتابه (الحضارة العربية).

وقد توسط في ذلك مصطفي الرافعي فسمى كتابه (حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة)، فجمع بين الاصطلاحين لا كما فعلت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه .

وكذلك فعل جاك ويسلر حين سمى كتابه الحضارة العربية أما سبنجلر فقد ذهب إلى أكثر مما ذهب إليه الآخرون حين استخدم الحضارة العربية للدلالة على حضارة منطقة واسعة فشمل شعوب الشرقين الأدني والأوسط كلها بما في ذلك الشعب الفارسي وإنما سماها بالعربية لدور العرب فيها [٢].

لابد من التنويه بإعجاب الفيلسوف سبنجلر الذي بلغ إعجابه بالحضارة العربية حداً كبيراً، فهو يرى أن العرب لم يستعمروا البلدان التي فتحوها بل استعادوا بكل بساطة بلادهم وحرروها، وهو يقول في هذا (وهذا وحده كاف لأن يشرح الآن سر الحياة الجبارة التي انطلقت بها الحضارة العربية عندما تحررت من قيود الغنى من الأغلال الأخرى انتشر بظلالها فوق كل الأفكار التي كانت باطناً ملكاً لها قبل قرون وقرون من انطلاقها الجبار[٣].

أما الباحثة زيغريد هونكة فقد وصفت دور العرب في كتابها فقالت في تقويمها:

إن هذا الكتاب يتناول العرب والحضارة العربية ولا أقول الإسلامية؛ ذلك أن كثير من المسيحيين واليهود والمزديين والصابئة قد حملوا مشاعلها أيضاً، أضف إلى ذلك أن كثيراً من صفات هذا العلم الروحي الخاص كان موجوداً في صفات العرب قبل الإسلام، هذا الكتاب يتحدث عن العرب والحضارة

---

(١) سورة طه: الآية ١١٣.

(٢) عفت الشرقاوي، في فلسفة الحضارة الاسلامية، الطبعة الرابعه، بيروت: دار النهضة العربية١٩٨٥م) ص٢١.

(٣) عبد السيد مهدي الرحيم، تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، طرابلس، ١٩٩٥م، ص٢٩

العربية بالرغم من أن الكثيرين من أبنائها كانوا لا ينتمون إلى الشعب الذي عرفه المؤرخ هيرودوت بأسماء عربية؛ بل كان منهم أيضاً فرس وهنود وسريان ومصريون وبربر وقوط وغربيون، أسهموا جميعاً في رسم معالم تلك الحضارة بدليل إن كل الشعوب التي حكمها العرب اتحدت بفضل اللغة العربية والدين الإسلامي، وذابت بتأثير الشخصية العربية من ناحية وتأثير الروح العربي الفذ من ناحية أخرى في وحدة ثقافية ذات تماسك عظيم[1]، إن هذه التسمية من حيث واقعها التاريخي تحتاج إلى مناقشة؛ ذلك أن دور العرب السياسي في القيادة للدولة الإسلامية لم يلبث أن نافسهم فيه أجناس أخرى فظهرت عناصر تركية مغولية جديدة صارت إليها القيادة في العالم الإسلامي بعد أن تفتت الدولة الإسلامية إلى دويلات صغيرة منذ أواخر العصر العباسي، لذلك لا يمكن أن نصف هذه الحضارة بأنها حضارة عربية.

لكن إذا استطاع باحث أن يكشف خصائص ثقافة معينة وملامح حضارية خاصة تسري في مجتمعات هذه المنطقة سواء كانت عربية أم فارسية أم تركية صح له أن يطلق عليها إسم العربية لا بالمعنى العنصري ولكن باعتبار أحد العناصر المؤثرة في هذه الحضارة، والمشكله لتكوينها الوجداني ورؤيتها التاريخية[2]. باعتبار ما يطلق عليه إسم الحضارة العربية لا يقتصر على ما قدمه العرب؛ وإنما يشتمل على ما قدمه كل المفكرين والعلماء في البلاد التي فتحها العرب واعتنقت الإسلام، وتكلمت وتأثرت بالحضارة العربية[3]، ومن المعروف أن الحضارات الدينية بصفة عامة تقوم على التفسير الروحي لألوان النشاط الاجتماعي فمسائل الحكم والسياسة والأخلاق والمعرفة كلها تستمد فلسفتها من التفسير الديني، ولم ينفصل هذا النشاط عن الدين إلا في العصر الحديث[4] خصوصاً إذا علمنا أن العرب الذين اعتنقوا الإسلام لم يكونوا هم وحدهم الذين أسهموا في بناء الحضارة الإسلامية بل أسهم فيها الكثيرون من غير العرب .

---

(١) المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٦م، ص١٣-١٤.
(٢) عفت الشرقاوي، مرجع سابق، ص٢٣.
(٣) رمضان عبد العظيم، الصراع بين العرب وأروبا، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٥.
(٤) عفت الشرقاوي، مرجع سابق، ص٢٣.

فأما القول بأنها حضارة إسلامية كما فعل آدم متز وجرونيارم وجب وغيرهم؛ باعتبار أن هذه الحضارة شارك في صنعها مع المسلمين كثير من النصارى وبعض المجوس واليهود والصابئة؛ بل إن أصحاب هذه الديانات قد أسهموا بصورة أو بأخرى في إبداع هذه الحضارة، ولكن يبقى أن وصف هذه الحضارة بالحضارة الإسلامية هو الوصف الأرجح؛ باعتبار أن الإسلام هو دين الأغلبية وأن الشريعة الإسلامية كانت الرابط الموحد لشعوب الدول الإسلامية طوال العصور الوسطي، وعلى الرغم من أننا نؤمن بحرية الفكر والاجتهاد في نطاق الموضوعية فإننا نترك للقارئ الكريم في آخر المطاف حرية الموافقة على هذه التسمية أو تلك على ضوء مايقرأ من فصول هذا الكتاب وموضوعاته[1]، للمفكر الإسلامي سيد قطب رأي وجيه عن الحضارة الإسلامية كتبه في كتابه (معالم في الطريق).

صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفايتها وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت وأنشأت مركباً عضوياً فائقاً في فترة تعد نسبياً قصيرة، وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة دائمة ضخمة تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان، لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق العربي والفارسي والشامي والأندونيسي والمصري والمغربي والتركي والصيني والروماني والإغريقي والأفريقي إلى آخر الأقوام والأجناس، وتجمعت خصائص لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية، ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما (عربية)، إنما كانت دائماً إسلامية ولم تكن يوماً (قومية) إنما كانت دائماً (عقيدية)[2].

وتستحق الحضارة أن نطلق عليها الحضارة الإسلامية، وهي حضارة لها آثارها المعنوية والمادية؛ تلك الآثار الواضحة في مشارق الأرض ومغاربها.

---

(١) د. عبد الحميد حسين أحمد السامرائي، تاريخ حضارة المغرب والأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ط١، الزاوية، دار شموع الثقافة، ٢٠٠٢م، ص٢٠-٢٣.

(٢) سيد قطب، دار الشروق، معالم في الطريق، ١٩٩٥م، ص٥٨-٥٩.